جامعة محمد خيضر-بسكرة

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربيّة

مخبر وحدة التّكوين والبحث في نظريّات القراءة ومناهجها

مداخلة المُشاركة في الملتقى الوطني الموسوم بـ:

سوق اللغات في الجزائر وسبل الانسجام الاجتماعي في ظل العولمة الثقافية

يوم: 07 أفريل2021

عنوان المداخلة: [اللغة العربية والأمازيغية تاريخ العلاقة ومستقبلها].

الاسم واللقب: نسرين بعيسي (طالبة دكتوراه)

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر -بسكرة-

البريد الالكتروني: nessrinebaissi1993@gmail.com

ملخص:

وقر في أذهان الناس منذ الأزل السحيق تقديس اللغة وإعظام شأنها لحدّ ارتباط هذه الأخيرة بتأثير اللفظ الحسن وسحر الكلمة، على نفسية الانسان وتطويره وبناءه..، فأدرك علماء اللغة علاقة اللغة بالمجتمع الذي نعيش فيه ومدى تأثّرها به وتأْثيرها عليه..، فلولاها لما قامت للإنسان حضارة وما كان له تاريخ، فتقع اللغة في جوهر هاته القضية كونها مصدرا لقوة الانسان وللذاكرة الوطنية والهوثقافية؛ وبالتالي تعتبر اللغة عاملا حساساً و قويا و مُؤثرًا يستلزم العناية به والتركيز عليه وجعله في مقدمة العلوم الإنسانية التي تسعى لصناعة إنسانٍ مفكر متحضّر. و"يعتبر علم اللغة هو العلم الذي يبحث في اللغة ويتّخذها موضوعا له، فيدرسها من النواحي الوصفية والتاريخية والمقارنة، كما يدرس العلاقة الكائنة بين اللغات المختلفة، وعلاقتها بالنظم الاجتماعية الأخرى"[1]،ويشمل موضوع علم اللغة كل النشاطات اللغوية للإنسان في الماضي والحاضر، فيستوي في هذا الانسان البدائي والمتحضّر..

نروم من خلال هذه الورقة البحثية، الوقوف عند بعض المحطات التاريخية للعلاقة بين اللغة العربية والمازيغية التي شهدتها بلاد المغرب قبل الفتوحات وبعدها، وتقصّي أهم النقاط التي تجمع بين هاتين اللغتين في كونهما نظام لغوي اجتماعي تجمعه الهوية والتاريخ، والنظر لمأمول العلاقة بين هاتين اللغتين ومستقبلهما اللغوي.

أولا: إطلالة تاريخية "نبش في ذاكرة التاريخ":

حسبنا في مستهل هذه الورقة البحثية، أن نطل لبرهة على نافذة التاريخ الذي أصبح يعاني كثيرا في المدارس والجامعات وحتى في الأوساط الاجتماعية، من العديد من المغالطات، منها ما هو مقصود..، ومنها ما هو سطحي وساذج، كتقديم الشعب الأمازيغي الأصيل المستعرب مثلا، على أنه شعب ذو أصول عرقية

عربية وأنه قدِم للاستوطان في هذه الرقعة من العالم..، وهذا ما نفاه العلامة ابن خلدون جملة وتفصيلا، وبهذا حُذفت أهم حلقة من حلقات التاريخ المازيغي وهي حلقة (الاستعراب)؛ والاستعراب من الفعل عَرَّبَ يُعَرِّبُ اسْتِعرَابًا، وهو فعل رباعي لاسم مفعول يدل على من وقع عليه فعل التعريب ويعرف الجواهري فعل التعريب في معجمه "الصحاح بقوله: [تعرّب، أي تشبّه بالعرب، وتعرب بعد هجرته أي صار أعرابيا...وعرُّب لسانه بالضم عربة أي صار عربيا، وأعرب كلامه، إذا لم يلحن في الاعراب ...وتعريب الاسم الاعجمي: أن تتفوه به العرب على منهاجها][2]، بمعنى نقل الكلمة –غير العربية– بما يتوافق والنطق العربي.

سجل الكرونو الزمني لتاريخ الشمال الافريقي "المازيغي"، حلقات متعاقبة ومختلفة في عدّة ميادين، بدءًا من نمط حياته ونظرته للوجود ولغته وفكره وفلسفته في الحياة، والجزائر لم تكن معزولة عن كل هذه الحركة..، خاصة وأنها بؤرة الحضارة المازيغية التي حملت بطوناً ذات أصول مازيغية في عدة قبائل برنسية في الجزائر كصنهاجة و كتامة وغيرهما..، و يرى العلمة عبدالرحمان بن خلدون أن سكان المغرب هم سكان أصليين في قوله:[لأن العرب لم يكن المغرب لهم في الأيام السابقة بوطن، وإنما انتقل إليه في أوساط المائة الخامسة أفاريق بني هلال و سليم و اختلطوا في الدول هنالك (...)، و لما أجاز بنو هلال و سُليم إلى المغرب، خالطوهم في تلك المواطن، ثم ارتحلوا معهم إلى المغرب كما نذكره في دخول العرب إلى أفريقية و المغرب] [3]، ويقول في نمط حياتهم و نقاط تواجدهم و عمرانهم:[هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملؤوا البسائط و الجبال من تلوله وأريافه وضواحيه، يتخذون البيوت من الحجارة و الطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي(...)، ومكاسبهم الشاء و البقر و الخيل في الغالب للركوب و النتاج(...)، و لباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة، ويفرغون عليها البرانس الكحل ورؤوسهم في الغالب حاسرة(...) ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها، وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم.][4]، وأما عن سبب تسمية "البربر"، ذكر العلامة ما يقال أن [أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب و أفريقية، وقتل الملك جرجيس، وبنى المدن و الأمصار وبسمه زعموا سميت أفريقية لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها

تعجب من ذلك وقال: ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر و البربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة ومنه يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة][5]، كما فصّل ابن خلدون وحفر عميقاً في قبائل البربر وأصولها وبطونها ومما ورد في هذا القبيل: [والبربر قبائل كثيرة وشعوب جمة، وهي هوارة وزناتة وضرية ومغيلة وزيحوحة ونفزة، وكتامة ولواتة وغمارة ومصمودة وصدينة ويزدارن ودنجين وصنهاجة ومحكسة ووراكلان وغيرهم...][6]؛ [وتعتبر قبائل صنهاجة من أوفر القبائل وأوسعها، حتى أن بعضهم يزعم أنهم يمثلون ثلث الأمازيغ، ويقول عنهم ابن خلدون:" هذا القبيل من أوفر قبائل البربر، وهو أكثر أهل الغرب لهذا العهد، وما قبله، لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم؛ في جبل أو بسيط."] [7] لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ المازيغ وهي مرحلة الفتوحات الإسلامية ونشر الدين الإسلامي واللغة العربية. شقت الثقافة العربية في بلاد المغرب المازيغي..، طريقا واسعا شعاره نشر الدين الإسلامي بكل ما تبعه هذا الدين الحنيف من ثقافة ولغة وحضارة، لينتهي مطاف هذا الطريق برسم حدود جغرافية جديدة متشكلة من ثلاث زوايا وهي" الهوية المازيغية، والدين الإسلامي، واللغة العربية والمازيغية"، [فكان من الطبيعي أن يتابع العرب فتوحاتهم بشمال أفريقية بعدما فتحوا مصر و الشام وغيرهما من ممتلكات امبراطورية بيزنطة، والجزائر يومئذ هي ضمن هذه الإمبراطورية التي غزاها العرب في الشرق، فكان لزاما على الدولة العربية الناشئة ومن واجبها السياسي أن تستمر على خطتها في الفتح(...) وذلك توطيدا للامبراطورية العربية الناشئة في الشرق، وإتماما لسلسة الفتوحات الإسلامية(...) ومن المعقول جدا أن يستمر فاتح مصر عمرو بن العاص رضي الله عنه في متابعة الفتح والاستيلاء على هذا الشمال الأفريقي..][8]، لتبدأ رحلة الزحف الإسلامي على بلاد المغرب المازيغي تحديدا في محرم 27 للهجرة بقيادة عبد الله بن أبي سرح؛ [واندمج في سلك هذه الغزوة نفر غير قليل من مشاهير الصحابة وأولادهم وقد عرف هذا الجيش بجيش العبادلة. ولما اكتمل القوم خطب فيهم الخليفة – عثمان بن عفان– مرغبا لهم في الجهاد قائلا: لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم الى ان تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه وأستودعكم الله فارتحل الجيش من المدينة سنة 27هـ][9]؛ ليتواصل الفتح الإسلامي بتواتر الفاتحين، وانتهى بهزيمة الكاهنة أين لقيت حتفها على يد القائد حسان بن النعمان في الثاني

من شهر رمضان سنة 82هـ، وهنا انتهت مرحلة سابقة للمغرب المازيغي ليحتضن تسمية ثقافة جديدة، وهي المغرب الإسلامي الجديد.

لم يجد الفاتحون عناءً كبيرا في نشر الدين الإسلامي، وهذا يعود على الشبه الكبير بين العرب والبربر، فأقبلوا على اعتناق هذا الدين الجديد من أول وهلة..، ومما أكدته الدراسات التاريخية في أن سبب تبكير البربر بالإسلام والعروبة راجع إلى الشبه الكبير بين قبائل البتر الذين يتمركزون في الجنوب [وذلك لشدة الشبه بين هذه القبائل الجنوبية والجاليات العربية، سواءً ذلك في حياتهم البسيطة الساذجة أم في أذواقهم و ميولهم واتجاهاتهم السياسية، وقد لاحظ البربر في المسلمين الفاتحين الاستقامة و العدل و المساواة، فرأوا فيهم المنقذ الوحيد مما هم فيه من الميز العنصري و الجور السياسي والاضطهاد الديني والفوضى الشاملة.][10]

واقع اللغة العربية قبل الفتح وبعده، كيف كانت اللغة؟:

اللغة العربية هي لغة رسخها الإسلام وتعلق بها الأمازيغ، وأكدت الدراسات الحديثة والمعاصرة أن اللغتين العربية و الأمازيغية تنحدران من أسرة لغوية واحدة، وهي أسرة اللغات السامية الحامية، ومن بين علماء اللسان الذين أجزموا وأكدوا هذا الرأي اللغوي م.كوهن M.COHEN [الذي أدمج اللغة المازيغية ضمن عائلة لغوية كبيرة وهي العائلة السامية الحامية والتي تشمل:"الأكادية، الكنعانية، الفينيقية، العبرية، الآرمية، العربية" إلخ..، وتتضمن الحامية اللغات المصرية القديمة واللغات البربرية و اللغات الكوشية التي تشمل لغات صومالية ولغات الجالا ولغات البدجان ولغات دنقلية ولغات السيداما إلخ..."][11]، إلا أنه من بين كل هاته اللغات السابقة الذكر، بقيت اللغة العربية الفصحى اللغة الحية الوحيدة التي تتميز بقواعد رصينة وملكة إعجازية لا تضاهيها فيها أية لغة أخرى، فلم يسبق للتاريخ اللغوي وأن سجل مثلها، وهذا راجع لإعجاز رباني وقدرة إلهية، ناهيك أنها لغة القرآن الكريم الذي تحدى به الله كبار الشعراء و البلغاء، كما لا يمكن إغفال جهود نحاتنا وعلماء اللغة منذ العصر العباسي ودورهم الفعال الذي أبلى بلاءً حسناً في تحصين اللغة ومنحها مناعة قوية ضد أي وباء لغوي قد ينتابها

و هذا هو سر قوة اللغة العربية..، ووضعهم علوم لغوية ذات أبواب متشعبة ومتخصصة كعلم النحو والصرف والبيان والعروض والبديع والمعاني...والتي جمعت إلى اثنتي عشر علما، [وقد جمع علوم الأدب العلامة ابن الطيب المغربي محشى القاموس في قوله:

خُذْ نَظْمَ آدابٍ تَضَوَّعَ نَشْرُها ... فَطَوى شَذَا المنثورِ حين يضوعُ

لُغَةٌ وصَرْفٌ واشْتِقاقٌ ونَحْوُها ... عِـلْمُ المـعاني بالبيـانِ بديـع

وعَروض قافية وإنشا نظمها وكتابةُ التاريخ ليس يضيع][12]

في حين ظلت اللغة المازيغية اللغة الحامية الوحيدة التي لا تزال تُتداول حتى هذا الحين.

[إن اللغة المازيغية، أو الليبية (Le Libyque)، المشتركة القديمة جدا، لا توجد إلا في أذهان علماء الألسنية، ولا ريب أنها تتميز عن لهجات اليوم، وكانت منتشرة في عموم الشمال الأفريقي من النيل إلى الأطلنطي ماعدا جبال تبستي التي هي معقل لغة تيدا (Téda) ...، واستعمل الإفريقيون القدامى منظومة كتابية هي الخط الليبي الذي انبثق منه تيفيناغ التوارق، والدليل هو أن النقوش الليبية والتيفيناغ القديم عثر عليهما في مناطق هي اليوم مستعربة تماما "في تونس وفي شمال شرقي الجزائر وفي منطقة الغرب وطنجة في المغرب وفي الصحراء الشمالية(...) إلا أن الكتابة الليبية في تلك المناطق طواها النسيان عند أهلها وعلى الخصوص عند دخول الألف باء العربية مع انتشار الإسلام في القرن السابع] [13]، وبالتالي كانت الكتابة المازيغية قبل الفتوحات بسنوات طوال تسمى بالتيفيناغ، وقد وصلت هذه الكتابة عبر مجموعة من النقوش والصخور وشواهد القبور...، إلا أنها اندثرت لعوامل استعمار

كغزو الفينيقيين اللاتين فيما بعد، [والخلاصة أنه يمكن التأكيد بأنه في فترة تاريخية معينة، كان لأسلاف المازيغ منظومة كتابية أصيلة منتشرة مثل انتشارهم من البحر المتوسط إلى النيجر] [14]، [وحسبما أكده التاريخ لحد الآن، لم ينشأ على أرض القارة الأفريقية كلها إلا أبجديتان اثنتان–بصرف النظر عن الهيروغليفيات–، هما الأبجدية الأمازيغية والأبجدية الأثيوبية، وقد أثبت البحث أن ظهور الحروف الأمازيغية الأولى يرجع عهده إلى فجر التاريخ، وأن مجال انتشارها يمتد من شمالي السودان إلى جزر الخالدات غربا وصقلية والأندلس شمالا، تسمى هذه الحروف التيفيناغ][15]، أكد المؤرخون وعلماء اللغة أن الشعب المازيغي لم يعاني كثيرا في اكتساب اللغة العربية..، فسرعا نما اكتسبها ونطق بها بلسان عربي فصيح، فانصهروا مع هذه اللغة وحفظوا القرآن وتعاليمه، ورجحوا هذه المعطيات أن السبب في هذا هو تقاطع الأسرة اللغوية [السامية–الحامية]، يقول الدكتور رابح كحلوش [من المحتمل أن يكون الانتماء اللغوي الموجود بين العربية والمازيغية، دور في تعلم لغة القرآن وتسهيله وكذا تسريع سيرورة الاستبدال اللغوي"Substitution linguistique" ...][16]

اهتمام المازيغ بالثقافة العربية كتابةً وتأليفاً:

لم يجد المازيغ صعوبة كبيرة في تلقي اللغة العربية والنطق بها والإبداع فيها...، فظهرت أقلام مازيغية أبدعت في علوم النحو والصرف، كما نظموا الشعر وأحسنوا صنعه..، ونذكر على سبيل المثال:

1/ يحي بن عبد المعطي عبد النور الزواوي(ت628هـ):

[وهو ابن عبد المعطي العلامة شيخ النحويين زين الدين أبو الحسين يحي بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المغربي النحوي الفقيه الحنفي، وسمع من القاسم بن عساكر، وصنف "الألفية" و"الفصول"، وله النظم والنثر، وتخرج به أئمة بمصر ودمشق][17]؛ واتفق كل من ترجم له أنه ولد سنة 564هـ بظاهر بجاية حيث كانت تسكن قبيلته "زواوة"(...)، ومن مؤلفاته ذكر أصحاب كتب التاريخ والتراجم عددا من مؤلفات ابن معطٍ منها:[18]

-الدرر الألفية في علم العربية.

-المثلث في اللغة.

-العقود والقوانين في النحو.

-الفصول الخمسون في النحو.

-ديوان الخطب.

-ديوان شعر.

-أرجوزة في القراءات السبع.

-نظم ألفاظ الجمهرة.

-البديع في صناعة الشعر.

فتح العلامة عبد المعطي آفاقا جديدة لعلماء النحو الذين أتوا من بعده وعلى منواله، ومن أشهرهم [ابن مالك (ت672هـ)، الآثاري(ت828هـ) والسيوطي (ت911هـ). ويكفي أن ابن مالك قد عرف قدر ابن معطٍ، حيث قال في ألفيته]:[19]

..... فـــائقةً أَلفيّـــةَ ابنِ مُعطِي

وَهـو بِسـبْقٍ حائزٌ تـفْضِيـلَا مُسْتَوْجِبٌ ثَنَائِي الْجَمِيـــلَا

ولم تكتفي شهرة الألفية عند هذا الحد فحسب؛ بل احتضن جموع العلماء هذه الدّرة وأعنوها بالدراسة والشرح والتحليل ومنهم [الإمام الوردي الحلبي الشافعي في كتابه "ضوء الدرة" وابن النحوية، وأبو بكر الوائلي الأندلسي الشريسي المالكي واسم شرحه:" التعليقات الوفية بشرح الدرة الألفية" وغيرهم كثير ...][20]

ومما له في باب النحو في أزمنة الأفعال إذ يقول:[21]

القــولُ فِي أَزْمِنَـــةِ الأَفْعَـالِ الحَالِ والمَاضِي والِاسْتِقْبَالِ

بِأَمْسِ قَدِّرْ مَا مَضَى نَحْوَ: قَعَدْ والآنَ لِلْحَاضِرِ وَالآتِي بِغَدْ

نظم ابن معطي العديد من الأبيات الشعرية الخاصة بتعليم النحو والصرف على بحرين شعريين وهما بحر الرجز والسريع، وهو ما ميز أُلفيته، جامعا عدة قضايا نحوية وصرفية وهم على سبيل المثال لا الحصر " قضية الكلام والكلم، علامات الاسم والفعل والحرف، الإعراب والبناء، الوقف، التثنية، الجموع، جوازم المضارع، نواصب المضارع، المبتدأ والخبر، الهجاء والإمالة، أبنية المصادر، التصريف، الإبدال، الضرورات الشعرية..، وغيرها وهذا عيض من فيض علمائنا رضوان الله عليهم الذين اجتهدوا وأبدعوا في علوم اللغة والفقه

ومن بين الشعراء المازيغ البارعين في اللغة العربية المحكمين لفنونها الشيخ نذكر نموذجا منهم:

02/ أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي القلعي (ت 673هـ):

[ومنهم شيخنا الشيخ الفقيه الأستاذ النحوي اللغوي المحصل التاريخي أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي القلعي من قلعة بني حماد، نشأ بالجزائر وقرأ بها، وانتقل إلى بجاية مستوطنا...، كان في علوم العربية بارعا، مقدما محكما لفنونها الثلاثة: النحو واللغة والأدب(...) ومن مؤلفاته كتاب سماه" بالموضح في علم النحو"، وله" حدق العيون في تنقيح القانون"، وله" نشر الخفي في مشكلات أبي علي"][22]، فكان زاهدا عاشقا للفقه والتفسير والحديث النبوي، كان سخي الدمع..، ومن نظمه في شعر الزهد ومدح أفضل خلق الله سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم[23]:

وإنّي لأَدعُو اللّه دعوةَ مُذْنِبٍ عَسَى أنظُرُ البيتَ العتيقَ وأَلْثمُ

فَيَا طُول شَوقِي للنبيّ وصَحبِهِ ويَا شدّ مَا يلْقَى الفؤَادُ ويكتمُ؟

تَوهّمتُ من طُولِ الحساب وهَوْلِهِ وَكَثرَةِ ذَنْبِي كيفَ لا أَتَوهَّمُ؟

إليكَ يا رَسولَ الله أَرْفَعُ حَاجتِي فَأَنْتَ شَفيعُ الخَلقِ والخَلْقُ هُيَّمُ

فَيَا سَامعَ الشّكْوَى أَقَلْنِي عثرتِي فإنَّكَ يَا مَوْلاي تَعفُو وتَرْحَمُ

إن المتمعّن لأبيات الشيخ عبد الله التميمي، يلحظ حضور النفس المتذرّعة للمغفرة، كما نجده قد أفلح نسبيًا في باب الزهد وحبّ الذات الإلهية، فنراه يتذرع ويتسول طمعا في مغفرة الله تعالى، مُقرًّا بوقوعه في الخطايا والمعاصي وأنه ظلم نفسه كثيرا باقترافها، مستنجدًا بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم..، كل هذا يوحي ويدل إلى تلاحم وانصهار المازيغ بالدين الإسلامي وباللغة العربية، [وأما عن التبكير بالعروبة وتأثير العرب العظيم في

البربر، فإننا لا نستطيع الإتيان ببرهان أوضح مما ظهر من معجزات البيان على لسان القائد البربري طارق بن زياد النفزي في تلك الخطبة المؤثرة البليغة التي سجلها التاريخ للعظة و الاعتبار، هي خطبته أمام جيشه المغوار يوم تقدم به لفتح الأندلس...][24]

قام طارق بن زياد خطيباً في أصحابه، فحَمِدَ الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم حثّ المسلمين على الجهاد ورَغَّبهم ثم قال: [25]

((أيها الناس، أين المفَرُّ؟ البحرُ من ورائكم، والعدوُّ أمامَكم وليس لكم واللهِ إلا الصدقُ والصَبْرُ. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أَضْيَعُ من الأيتام في مَأْدُبَةِ اللِّئام، وقد اسْتَقْبَلَكم عدوّكم بِجَيْشِهِ وأَسْلِحَتِهِ، وأَقْواتُه موفورةٌ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفُكم ولا أقواتَ إلا ما تَسْتَخْلِصُونَه من أيدِي عدوِّكم، وإن امْتَدّتْ بكم الأيامُ على افتقارِكم ولم تُنْجِزوا لكم أمراً ذهبتْ رِيحُكم، وتَعَوّضَتِ القلوبُ من رُعْبِها منكم الجَرَاءَةَ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خُذْلانَ هذه العاقبة من أمركم بِمُناجَزَةِ هذا الطاغية.)) وتعتبر خطبة طارق بن زياد، أحد أشهر الخطب الحربية الحماسية الفريدة من نوعها، والتي تميزت بطابعها البليغ منذ الجملة الاستنكارية الأولى، فكانت لها نتائج غيّرت مسار التاريخ الأندلسي لمدة ثمانية قرون وهذا ما يدل على براعة الصنف المازيغي وتمكنه من الجانب اللغوي، كما نسبت إليه بعض الأبيات الشعرية دالة على ملكة شعرية وثقافة في الأدب واللغة والإخلاص لمبادئ العروبة والإسلام يقول في أبيات قصيرة:

ركـــبنا سفيـــنـا بالمجـــاز مـقيـــرا عـسى أن يكون الله منا قد اشترى

نفـــوسا وأمـــوالا وأهـــلا بجـنة إذا ما اشتهيـــنا الشيء فيها تيسرا

ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنـا إذا نحـن أدركنا الذي كان أجـدرا[26]

ظل هذا الاحتماء باللغة العربية سنين مديدة حتى وصول المدمر الفرنسي الذي حارب تواجد اللغتين فأغلق الكتاتيب والمساجد، ناهيك عن مشروع الجزائر فرنسية وما إلى ذلك من مشاريع هادفة لتذويب الهوية الجزائرية.

ثانيا: رؤية استشرافية لمستقبل العلاقة بين العربية والأمازيغية:

إن الحديث عن مستقبل العلاقة بين العربية والأمازيغية يحيلنا مباشرة إلى قضية المثاقفة اللغوية، هذه الأخيرة لن تتحقق إلا برغبة ملحة وشديدة من أوساط المثقفين وضرورة الإلحاح المستمر بالاعتراف بالآخر مهما كان تاريخه وحضارته ولغته، لأن الحق في الاختلاف مشروط وموجود منذ الأزل السحيق...، فالمثاقفة اللغوية التي سنعقب عليها من خلال هذه الورقة البحثية بين اللغة العربية والأمازيغية، ماهي إلا إضافة لغوية لنظام ألسني، وليس انصهارا ولا استيلابا أو تبعية كما يطلق عليها الكثيرون..، خاصة وأن اللغتان (المازيغية والعربية)، تندرجان في حيز فصيلة اللغات السامية الحامية، وهو ما يدعم مرة أخرى النسق اللغوي والثقافي المشترك الذي يجمعهما بين المرة والأخرى، وحتى يتحقق تعايش ثقافي بين لغتين لابد من أن تتوفر آليات تجمع بين اللغتين أكثر من تلك التي تفرقهما..، وحتى تتسنى فرصة الفهم، لابد من التعقيب والوقوف على مفهوم المثاقفة رغم صعوبة تحديد مفهوم جامع مانع لها..، إلا أن هناك محاولات متكررة لضبط هذا المفهوم الشائك، فيعرفها عز الدين لمناصرة بقوله: [هي تبادل ثقافي بين شعوب مختلفة، أو هي تعديلات تطرأ على ثقافة بدائية نتيجة لاحتكاكها بمجتمع أكثر تقدما، أو تأقلم ثقافي يفضي إلى رفع مستوى فرد أو جماعة أو شعب][27]، فالمثاقفة إذن هي تلاحم وتشابك إلى حد لا يمكن عزله أو تفكيكه، ويبقى هذا التلاحم في إطار إيجابي يفضي إلى توحيد المجتمع وترقيته؛ في حين يعرفها الباحث منير بعلبكي بقوله:[هي مجموعة من الظواهر الناتجة عن احتكاك مستمر ومباشر بين مجموعات أفراد تنتمي إلى ثقافات مختلفة تؤدي إلى تغييرات في الأنماط الثقافية الأولية لهذه المجموعة أو تلك][28]، فالمثاقفة في هذه الحالة تحيلنا مع الزمن إلى تغيرات تؤثر على كلا المجموعتين، أو انغماس الأولى في الثانية أو العكس.

وبالتالي فالحديث عن مستقبل لغوي يستلزم منا النظر بعين ثاقبة والتعمق أكثر داخل أوساط المجتمع الجزائري العربي منه والمستعرب..، والخروج من بوتقة ثنائية الأنا والآخر، والتي أصبح –في هذ المرحلة تحديدا– من الصعب الفصل وتمييز الأنا من الآخر، في ظل هذا التلاحم الثقافي واللغوي بين الجنس العربي والمازيغي، ولتجاوز التعصب والعنصرية التي يشهدها المجتمع الجزائري بين فئاته المختلفة، والحفاظ على علاقة جمعت بين لغتين منذ بداية الفتوحات إلى نهايتها سنة82هـ، وحتى يومنا هذا...، لابد من تأسيس وازع هوياتي، كتعاون اللغتين في نشر ثقافة العمل والحرص على تطويره والإسهام في تحقيق وحدة وطنية، فالهدف من تواجد لغتين داخل حيز جغرافي واحد، لا يجب أن يقتصر على التواصل اللغوي فحسب، إنما بضرورة الحذو نحو تحقيق صفة التكاملية بدءًا بالتعايش والتأقلم مع التعدد اللغوي في الجزائر، وأخذه على أنه أمر فطري وطبيعة بشرية وإبداله بمصطلح أكثر انفتاحا وهو التعدد الثقافي، لأن مهارة الاكتساب تحمل معها أبعاداً ثقافية وأيدولوجية مختلفة..، فإذا كانت الغاية من الحفاظ على اللغة العربية والمازيغية من أجل التواصل أو المحافظة على التراث المازيغي أو العربي فقط، فلا عجب أنه وبعد فترة ليست ببعيدة من الزمن سيتراجع تداولهما، خاصة وأن الأجيال الصاعدة تعاني من انسلاخ وتمزق تاريخي وهوياتي..، واجتذاب مستمر وسريع نحو ثقافات أجنبية دخيلة عن الثقافتين (كالتأثّر بالمجتمع الأوروبي والأمريكي)، ولهذا الانسلاخ عدة أسباب لعل من أهمها وأبرزها على الإطلاق الوضعية الاقتصادية التي تعاني منها الجزائر وتزايد نسبة البطالة وعزوف شريحة الشباب عن فكرة الزواج..، فالشباب الجزائري وجد بديله الضائع في المجتمعات الغربية كونها مجتمعات رائدة ومتطورة في كل الميادين تقريبا..، ويمكن الجزم على أن السبب في القيادة الأمريكية فيشتى الميادين(الاقتصادية/التجارية/العسكرية/العلمية/اللغوية...) مرهون بالأساس بعوامل اقتصادية وهذا ما جعل سكان العالم يتهافتون على تعلمها وتداولها، بل وتعدى الأمر إلى تحفيز الأطفال دون الست سنوات وتسجيلهم في مراكز لتعليم اللغات الأجنبية (اللغة الإنجليزية على وجه الخصوص)، كلٌّ حسب رغبته، فمنهم من يطمح لاكتساب مكانة اجتماعية محترمة، وآخر لتحصيل دخل فردي وفير، وآخر يرغب في الهجرة وغيرها من الأسباب، ومن هنا يمكن للرؤية أن تتضح بشكل جلي وواضح، فالذي

يملك القوة يملك سمة الإخضاع، والذي له الغزارة ي الإنتاج العلمي والتكنولوجي ..، له القابلية كذلك في السيطرة والهيمنة، بدءًا من الاقتصاد والإنتاج وصولا إلى اللغة وتغلغل ثقافات أجنبية دخيلة عن المجتمعات العربية والإسلامية، فالسيطرة قانون اجتماعي نوه إليه العلامة ابن خلدون في مقدمته الشهيرة بقوله:" المغلوب مولع بالغالب" فكل تلك المؤشرات السلبية أدت إلى تغير على المستوى الاجتماعي، مصحوب بانحدار خطير في قيم الناس وعاداتهم وسلوكاتهم لم يسبق للتاريخ الاجتماعي الجزائري وأن شهدها مثلها من قبل، فإن دور اللسانيات الاجتماعية هنا..، لا يقل عن دور العلوم الاجتماعية والسوسيولوجية كثيرا. فقد حان الوقت للمجال السوسيولساني أن يشد العزم ويقوم بوضع تخطيط لغوي وتنفيذه لتعزيز العلاقة بين اللغتين بدءًا بـ:

-يترتب وضع التنشئة اللغوية في مقدمة التخطيط اللغوي في الجزائر، والتي تبدا أساسا بتلقين الطفل مهارة الإصغاء والتخاطب، وصولا إلى الوعي لما وراء اللغة (التصورات الذهنية للمفردات)، ونخص هنا اللغة العربية والمازيغية حتى لا يشكل ذلك عائقا لدى الطفل مستقبلا خاصة في ظل ترسيم اللغة المازيغية كلغة رسمية منذ سنة 2016، فالاعتراف برسمية لغة من اللغات هو اعتراف بالهوية واعتراف بالوحدة الوطنية، وهذا ما حققه ترسيم اللغة العربية في العالم العربي ككل، حد وصولها إلى ما اصطلح عليه بـ"القومية العربية"، فقد بات من الضروري وضع مناهج لغوية تخص اللغة المازيغية لفائدة الأطفال دون الست سنوات داخل مراكز التهيئة اللغوية

-حل مشكلة تعدد اللهجات المازيغية وتقليص حجم اللهجنة وإخراجها من الجيوب اللهجية المختلفة "القبائلية/ الشاوية/ المزابية/ الشلحية/ التاركية/ الزناتية..."، فأين هي مركزية اللهجة واللغة المازيغية أمام كل هذا الزخم اللهجي المتعدد التي أصبحت تعاني منه اللغة المازيغية؟ والحقيقة يمكن اعتبار ن تنوع اللهجات جعل اللغة المازيغية تقف أمام انشطار وعدم تكافؤ واختلاف كمي بينها وبين نظيرتها العربية..، فكيف السبيل لجمع شذرات هذا الاختلاف وصبه في وعاء لغوي موحد يسوقه التاريخ المازيغي

الأصيل؟ الجواب هنا يقتضي الإجماع واللجوء إلى الميدان المعياري في ضع قاموس مازيغي يجمع بين اللهجات المتنوعة باتباعهم المستويات الصوتية والصرفية في الجمع بين كل اللهجات.

– رجّح الكثير من الباحثين فرضية مفادها [أنه يمكن للغة العربية والأمازيغية أن يتعايشا، إذا تحلى في إمكانية اعتماد الخط العربي وسيلة للكتابة الأمازيغية بدلا من الرموز الأمازيغية القديمة التي تضيق على المتعلمين وتعسر عليهم السبيل للتعلم][29]

– ضرورة الاعتناء بالجانب العلمي للغة المازيغية حتى تكتسب مناعة أقوى لأي وباء لغوي محتمل حدوثه مستقبلا، وإخراجها من فوهة تاريخها نسبيا في اكتفاءها بالتعبير الشفهي عن الفرد المازيغي، وضرورة تداولها كتابةً بصفة أوفر.

–كما ارتأى أخصاؤوا اللغات وتنبؤوا، بظهور وباء لغوي خطير ناجم عن قلة التواصل في أوساط المجتمع، والاكتفاء بوسائل التواصل الاجتماعي الصامتة التي لم تعد مطية للتقارب بل أبسط ما يمكن الاصطلاح عليها بـ–وسائب التباعد الاجتماعي–، وأوّلوا على أن اللغة الأكثر مناعة هي الناجية من ذلك الوباء الموعود، كما ألحوا على ضرورة الإنتاج الدبي والفني بموازاة القراءات النقدية المصحوبة مع كل عمل فني وذلك لصيانة اللغة والفكر والرؤى، وبالتالي تكون الحركة النقدية كالمصل أو خط الدفاع الأول للغة إن صح التعبير في شقه الطبي.

– يشير الدكتور محمد شفيق بأن [اللغة الأمازيغية في وضعها الحالي، أي بصفتها لغة حية يتخاطب بها الناس في تلقائية وعفوية، قابلة للانتعاش والنمو والازدهار، لاسيما أن لها نظاما اشتقاقيا جد مرن يتفاعل فيه الاشتقاق الأصغر والاشتقاق الأكبر مع النحت والتركيب المزجي؛ تفاعلا يضاعف إمكانات الخلق المعجمي اليسير المنال][30]، وعليه يمكن افتراض خصائص اللغة الأمازيغية المتسمة بالمرونة، أن تؤهلها لتبوء مكانة ضمن اللغات الكتابية، كحال اللغة العربية التي أثبتت عبر مسارها التاريخي أنها لغة صالحة لكل زمان ومكان وأنها لغة تطبيع وتطويع، وأنها قادرة على استيعاب العلوم الغربية الدخيلة بألفاظ عربية،

وذلك بعد تطعيم اللفظ الأجنبي بجينات عربية، وهو ما تحتاج إليه اللغة المازيغية اليوم، بحيث أننا بالكاد نجد قاموس مازيغي ملم وجامع لكلمات ومصطلحات حديثة موازية لكل موجودات هذا القرن، فاللغة المازيغية متعطشة دوما لكلمات معاصرة مواكبة لموجة التطور العلمي والفكري وحتى اللغوي الذي بات يُلح ويُلوّح بضرورة وضع كلمات تناسبه لتعبر عن روحه وزمنه وموجوداته.

خـــاتمـــة:

يجمل المقال جملة من النتائج المتوصل إليها في هذه المداخلة ومن أبرزها:

- تاريخ العلاقة بين العربية والمازيغية ابتدأ بنشر الدين واللغة، وانتهى بتلاحمهما معا.
- ضم الشمال الافريقي العديد من الشعراء والمفكرين الذين أبلوا بلاءً حسنا في عالم الأدب والفكر والسياسة.
- الواقع أن براعة هؤلاء المازيغ في العلوم العربية..، دليل على التلاقح الفعال والايجابي الذي خلفته العلاقة الطويلة بينهما.
- ضرورة التسليم لقضية المثاقفة بين العربية والمازيغية والاعتراف بالآخر.
- الاعتناء بالجانب العلمي للغة المازيغية، أصبح ضرورة حتمية لاكتسابها مناعة قوية ضد أي وباء لغوي مُحتمل حدوثه مستقبلا.

الإحـــالات:

[1] رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (ط 2)، 1985، ص08.

[2] أ. ميسون علي جواد التميمي، تحديد مصطلح التعريب لغة واصطلاحا، مقال منشور عن صحيفة دولية صادرة برعاية المجلس الدولي للغة العربية.
https://www.arabiclanguageic.org/index.php

[33] عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، (د ط)، 2000، 06/ص06.

[4] المرجع نفسه، ص 116.

[5] المرجع نفسه، ص 117.

[6] المرجع السابق، ص122.

[7] بوزياني الدراجي، القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها أعيانها، دار الكتاب العربي، الجزائر، (د ط)،2007، 02/ص55.

[8] عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، الجزائر، الطبعة الثانية، 1965، 1/ 161.

[9] ينظر، المرجع نفسه، ص 163.

[10] المرجع نفسه، ص186.

[11] عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، دار الصفاء، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2002. ص154-157.

[12] أبي الوفاء نصر بن نصر يونس الوفائي الهوريني، المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية، تح: طه عبد المقصود، الدار السلفية لنشر العلم، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005، ص 31.

[13] العربي عقون، الأمازيغ عبر التاريخ، التنوخي للنشر، الرباط المغرب، ط 1، 2010، ص09.

[14] المرجع نفسه، ص10.

[15] محمد شفيق، ثلاثة وثلاثين قرن من تاريخ الأمازيغيين، (د ط)، (د ت)، ص65.

[16] سمير معزوزن، مداخلة بعنوان" المثاقفة اللغوية في الجزائر بين العربية والمازيغية في ظل التعديل الدستوري الجديد، أعمال ملتقى وطني، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2018، 1/ ص134.

[17]محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيت الأفكار الدولية، السعودية، (ج1)، (د ط)، 2004، ص4183.

[18]يحي بن عبد المعطي الزواوي المغربي، الدّرة الألفية، ضبط: سليمان إبراهيم البلكيمي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، ط1، 2010، ص10.

[19]المرجع نفسه، ص13.

[20]ينظر، المرجع نفسه، ص14.

[21] المرجع نفسه، 22.

[22] ينظر، أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ط)، (د س)، ص94.

[23]ينظر، المرجع نفسه، ص96.

[24] عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ص 187.

[25] ربيعي محمد، دراسة تحليلية للخطب الحربية «خطبة طارق بن زياد أنموذجا«، الثلاثاء 1442/6/5 هـ/الموافق2021/01/19م، الساعة،01:53رابطالمقال: https://www.alwasattoday.com/site-sections/73119.html

[26] د/ سوادي عبد محمد، طارق بن زياد، هيئة كتابة التاريخ، الطبعة الأولى، 1988، ص24.

[27] عز الدين لمناصرة، المثاقفة والنقد المقارن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، (د ط)، 1996، ص 07.

[28]منير بعلبكي، قاموس المورد، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (د ط)، 1994، ص24.

[29]يوسف يحياوي، مداخلة بعنوان "التلاحم اللغوي بين المازيغية والعربية في الجزائر -مقاربة ميدانية للمصطلحات وتطورها في الاستعمال-"، أعمال ملتقى وطني بعنوان " التعايش اللغوي في الجزائر"، إعداد: المجلس الأعلى للغة العربية، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية،2018، 1/ص 315.

[30] محمد شفيق، ثلاثة وثلاثين قرن من تاريخ الأمازيغيين، ص63.